G H A Z I   A L - G O S A I B I



غازي عبد الرحمن القصيبي









غازي عبد الرحمن القصيبي







سلمى / رواية قصيرة عربية
غازي عبد الرحمن القصيبي / مؤلّف من السعوديّة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

الإشراف الفنيّ :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة
التنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-441-08-1

إلى

الصغيرة سلمى سهيل القصيبي

شيئاً

من حكايات أمّتها الكبيرة

تفتح العجوز عينيها بشيء من الصعوبة . ترى ابنها الذي يقترب ويقبّل رأسها ويديها ثم يجلس أمامها . لا بدّ أنه يوم الجمعة . سليم لا يزورها إلاّ يوم الجمعة . تبتسم وتقول :

- سليم! كيف حالك ؟ كيف حال الأولاد ؟

- بألف خير . الجميع بخير . يُقبّلون يديك . كيف صحتك أنت يا أمّي ؟

تتنهّد العجوز ، وتقول :

- في نعمة من الله . في الثمانين ألا يكفي المرء صحّة أن يظلّ على قيد الحياة ؟

يتظاهر سليم بالجزع :

- في الثمانين ؟ ! لم تبلغي السبعين بعد ، يا أم سليم . أم تريدين أن يكبر سليم معك ؟

- في السبعين . أو في الثمانين . أو في التسعين . ما الفرق ؟ الحركة صعبة . والذاكرة ضعيفة . والنوم متقطّع . والدنيا تغيّرت . والأصدقاء قلّوا . والأدوية كثرت . والحمد لله على كل حال . دعنا من صحّتي الآن . هل أحضرت الراديو الذي أوصيتك عليه ؟

يفتح سليم حقيبة يده ، ويُخرج منها راديو ترانسستور يقدّمه إلى أمّه التي تأخذه بشغف طفل تلقّى هدية جديدة ، وتسأل :

– ياباني ؟

– نعم ، يا أمي .

– آخر موديل ؟

– نعم ، يا أمي .

– يُحضر «صوت العرب» ؟

– نعم ، يا أمي .

– و«هنا برلين» ؟

– و«هنا برلين» .

تغمض العجوز عينيها ، ويأخذها النعاس . عندما ترفع رأسها تجد ابنها يجلس في المقعد بإحترام ، محاولاً أن يخفي تململه . تقول له بحنان :

– قم ، يا سليم . عد إلى بيتك . الأولاد في انتظارك . هذا يوم العطلة . يقبّل سليم رأسها ويديها ، من جديد . يغادر الصالون الصغير وفي ذهنه السؤال المعتاد : لماذا تريد أمّه جهاز راديو جديداً كل شهر ؟

ويجيء الجواب المعتاد : لم يعُد عقل أمّه كما كان .

*

تتقلّبُ العجوز على فراشها ، والراديو الجديد بجانب رأسها على المخدّة . تتحرّك أصابعها ، وهي بين النوم واليقظة . ويدور المؤشّر بين الإذاعات . فجأة ، يتوقّف المؤشّر ، ويتحدث الراديو عن جمال عبد الناصر . ترهفُ العجوز السمع . برنامج خاص بمناسبة الذكرى الخمسين لثورة ٢٣ يوليو . ويأتيها صوتُ جمال في خطبة من خطبه الناريّة . تصغي العجوز . وتصغي . وتغفو .

*

يرفع الرئيسُ جمال عبد الناصر رأسه من الأوراق التي تكتظُّ بها طاولته الصغيرة ، في مكتبه الصغير ، في بيته في منشيّة البكري . يُشرق وجهه عندما يرى سلمى واقفة أمامه . يقول ضاحكاً :

- سلمى ! كيف دخلت ؟ لم يُشعرني أحد . لم أحسّ بك .

تضحك ، بدورها ، وتقول :

- سيادة الرئيس ! هل نسيت أنني مديرة المخابرات العامة ؟!

- كيف أنسى ؟ ألم أكن أنا الذي عيّنتك ؟! ألم يستغرب العالم

كلّه قراري بتعيين امرأة في هذا المنصب الحسّاس ؟ هل تذكرين ما كتبته الصحف البريطانية ؟

- اعتبرت القرار ضربة من ضربات الدهاء السياسي . المرأة أكثر وفاءً من أيّ رجل ، وأقلّ خطراً على النظام من أيّ رجل .

- قد يكون هذا صحيحاً . ولكني لم أخترك لأنّك امرأة . اخترتُك لكفاءتك النادرة .

يحمرّ وجه سلمى وهي تسمع هذا الإطراء النادر من الرئيس ، وتقول :

- سيادة الرئيس ! وحان الوقت لكي تستفيد من قرارك ، وتستفيد من الكفاءة . هل من الممكن أن تلغي كل ارتباطاتك ، وأن تأمر السكرتارية بعدم إيصال أيّ مكالمة لك ، وتتفرّغ لي ، لمدة ساعتين ؟

- الآن ؟!

- الآن . الأمر لا يحتمل التأجيل .

- ولمدة ساعتين كاملتين ؟

- الأمر لا يحتمل الاختصار .

يشير الرئيس اليها بالجلوس . ويصدُر تعليماته بالتيلفون

للسكرتارية . ويزيحُ الأوراق المتراكمة أمامه . يفتحُ علبة «الكنت» ، ويأخذ منها سيجارة ويقدّم أخرى لسلمى ، التي تعتذر شاكرة . يشعل الرئيس سيجارة ، وينفث الدخان ، ويقول :

– تفضّلي ، يا ستّي ! أنا تحت أمرك .

– سيادة الرئيس ! هذا موضوع مصيري . هناك مؤامرة خطرة جداً تُدبّر ضدك ، وضدّ مصر .

– يبتسم جمال عبد الناصر ، ويقول :

– هذا كل ما هنالك ؟ كل يوم هناك مؤامرة خطرة جداً تُدبّر ضد مصر ، وضدّي . على الأقل ، هذا ما تقوله لي المخابرات العامة .

تهزّ سلمى رأسها بعنف ، وتقول :

– لا ! لا ! لا ! لا أتكلّم عن المؤامرات اليومية العادية . أتحدّث عن خطر داهم ، عن تواطؤ دولي محكم ضدّك .

– عدوان ثلاثي جديد ؟!

– أخطر ، يا ريّس ، أخطر بكثير .

– أخطر من العدوان الثلاثي ؟!

– بكثير . هذه المرّة ، أطراف المؤامرة أمريكا والاتحاد السوفيتي

وإسرائيل ، بالإضافة إلى دول عربية ، بالإضافة إلى عناصر في الداخل .

- يا ساتر! يا ساتر يا ربّ! الاتحاد السوفيتي يتآمر مع أمريكا ضد مصر ؟! الاتحاد السوفيتي صديق وحليف . سلمى! هل بدأت في . . . في . . .

يسكت الرئيس مُحرجاً ، وتُكمل سلمى جملته :

- لا ! لم أبدأ في تعاطي الحشيش ولا الأفيون . معلوماتي مؤكّدة مئة في المئة .

- وماذا تقول هذه المعلومات ؟

- هل أبدأ ، الآن ، بالسيناريو الكامل ؟

- بتفاصيله .

تفتح سلمى ملفاً تقلّب أوراقه ، وتقول :

- سوف تبدأ المؤامرة بمعلومة ملغومة .

ينظر إليها الرئيس باستغراب .

- معلومة ملغومة ؟! من السي . آي . إيه ؟!

- لا ، يا سيادة الرئيس . لو جاءت من السي . آي . إيه لما صدّقها

أحد ، ولما حملت أي خطورة . سوف تجيء المعلومة الملغومة ، المعلومة الكاذبة المضلّلة ، الفصل الأول في المؤامرة ، من الصديق الحليف .

- الاتحاد السوفيتي ؟!

- نعم .

- شيء غريب جداً .

- لم تبدأ الغرائب بعد . سوف يسرّب الاتحاد السوفيتي ، إلى سيادتك شخصياً ، معلومة تقول أن وسائل الرصد السوفيتية تؤكّد أن هناك حشداً إسرائيلياً كبيراً على حدود سوريا ، وأن هجوماً إسرائيلياً وشيكاً . . .

يقاطعها :

- سلمى ! هل بدأت تقرأين الفنجان ؟ ما هذا الكلام ؟

- سيادة الرئيس ! أرجوك ! أقسم لك أن معلوماتي دقيقة جداً ، ومصادري لا يتطرّق اليها الشك . ألا تثق فيّ ؟

- ثقتي فيك مطلقة ، ولكن . . .

- إذن ، أرجو أن تصدّقني . قبل أن تُسرّب المعلومة سوف تكون هناك معارك جويّة تُسقط فيها المقاتلات الإسرائيلية عدداً من

الطائرات السورية . وسوف تكون هناك تهديدات إسرائيلية باحتلال دمشق . عندما تصلك المعلومة سوف تكون مُهيأً نفسياً لدخول المصيدة .

- المصيدة ؟ سلمى ! هل بدأت تفقدين صوابك ؟

- قلتُ لك ، يا سيادة الرئيس ، إن المؤامرة خطرة جداً ، ومصدر خطورتها أنها لن تأخذ شكل مؤامرة . سوف تسير الأمور سيراً طبيعياً ، ويقود فعل إلى ردّ فعل ، حتى تقع الواقعة .

- سلمى ! أنا عاجز عن متابعتك . لنفترض أنه حدثت معركة جويّة بين الطيران الإسرائيلي والطيران السوري . هذا أمر وارد ، حدث في الماضي ويمكن أن يحدث في المستقبل . ولنفترض أن إسرائيل حشدت قوات على الحدود السورية . هذا ، بدوره ، أمر وارد .

- هل رأيت ، يا سيادة الرئيس ، هل رأيت ؟ سوف يبدو كل شيء طبيعياً ومعتاداً ووارداً حتى تقع الكارثة .

- الكارثة ؟! أيّ كارثة ؟!

- صبرك ، يا ريّس ، صبرك ! سوف أشرح السيناريو بالتفصيل . يسقط عدد كبير من الطائرات السورية وتعلو نبرة التهديدات

الإسرائيلية لسوريا . في هذه الأثناء . ستصيح الإذاعات التي تعرفها ليل نهار : «أين مصر ؟ أين قائد الثورة ؟ لماذا تخلّى رائد القوميّة العربيّة عن سوريا ؟» ثم . . .

يقاطعها الرئيس :

- سلمى ! تعوّدنا على المزايدات الإذاعية . لن ألقي إليها بالاً .

- رُبّما تستطيع أن تتجاهلها في البداية . ولكن حين تأتيك معلومة مؤكّدة من الاتحاد السوفيتي ، حليف مصر وحليف سوريا ، تقول لك أن إسرائيل سوف تجتاح سوريا ، سوف يتغيّر موقفك . سوف تضطر . . .

يقاطعها الرئيس مُجدّداً :

- لن أسمح لأحد باستدراجي إلى معركة أعرف أني غير مستعد لها .

- سيادة الرئيس ! لا تغضب إذا قلتُ لك أنك لا تعرف نفسك كما يعرفك أعداؤك ، وكما أعرفك أنا .

- ماذا تقصدين ؟

- أقصد أنك حين تجد نفسك مضطراً أمام الجماهير العربيّة التي

تعشقك وتعشقها إلى اتخاذ عمل فسوف تتّخذه ، كما فعلت يوم قبلت . . . .

ينظر إليها معاتباً ، وتقول :

– أعتذر ، يا سيادة الرئيس . هل من الممكن أن أكمل السيناريو ، وبلا مقاطعة ؟!

يضحك الرئيس ، ويقول :

– تفضّلي ، يا ستي ! وبلا مقاطعة !

– شكراً ! سوف تكون الأجواء مضطربة جداً في المنطقة على إثر إسقاط الطائرات السورية . وسوف تكون التهديدات الإسرائيلية سافرة جداً ، ووقحة جداً ، واستفزازية جداً . سوف يتكرّر الحديث عن احتلال دمشق ، دمشق التي حملت سيارتك أيام الوحدة والتي . . . آسفة ! أعود إلى السيناريو . سوف تكون الأجواء متوتّرة جداً حين يأتيك التحذير السوفيتي من عدوان إسرائيلي وشيك على سوريا . ومع التحذير ، سوف يجيئك تلميح ، تلميح يشبه التصريح ، أن الاتحاد السوفيتي سوف يقف معك إلى النهاية ، ويحارب بقواته إذا لزم الأمر . . .

– لن يحارب الاتحاد السوفيتي من أجل أحد .

– هذا ما نعرفه جميعاً ، يا سيادة الرئيس . ولكن في ظروف التوتّر والانفعال والاضطراب يصدّق الإنسان ما يريد أن يصدقه حتّى . . .

– خرجنا من المخابرات إلى الفلسفة ؟!

– عفواً ! نعود إلى المخابرات . تجيء المعلومة من الاتحاد السوفيتي ، يحملها مسؤول رفيع جداً . . .

– مسؤول مصري أو مسؤول سوفييتي ؟

– يحملها مسؤول مصري رفيع نقلاً عن مسؤول سوفييتي رفيع . ومع المعلومة ستجيء الإشارة إلى أن الاتحاد السوفيتي لن يتخلّى عنك إذا قرّرت دخول مواجهة مع إسرائيل .

– سلمى ! أنت تعرفين الأوضاع جيداً . أنا غير مستعد لدخول حرب مع إسرائيل . ثلث الجيش المصري في اليمن . والأوضاع العربيّة في أسوأ حالاتها . وقيادة الجيش . . .

يصمتُ الرئيس قليلاً ، ثم يقول :

– خلّيها على الله ! لماذا تتوقّعين أن تنجح خطة ساذجة كهذه في استدراجي ؟

- سيادة الرئيس ! لن تتبيّن أنها خطّة لاستدراجك . سوف يبدو كل شيء وكأنه إنقاذ لسوريا . سوف تصدّق التحذير ، وسوف تصدّق أن الاتحاد السوفيتي يقف معك . وسوف تتّخذ الإجراء الذي يعرف واضعو المؤامرة أنك ستتخذه .

- وما هو هذا الإجراء ؟ أن أعلن الحرب على إسرائيل ؟

- لا . لن تفعل ذلك ، بطبيعة الحال . ولكنك سوف تتخذ إجراءات تعطي إسرائيل المُبرّر لشن هجوم شامل كاسح على مصر .

- سلمى ! هل يمكن أن توضّحي هذه الألغاز ؟

- لا توجد ألغاز ، يا ريّس . سوريا مهدّدة بعدوان وشك . والاتحاد السوفيتي هو الذي أبلغك ، ووعد بالوقوف معك . ماذا ستفعل ؟

يطرق الرئيس مفكّراً ، ويشعل سيجارة جديدة ، ويقول :

- لن أدخل معركة مع إسرائيل مهما كانت الاستفزازات .

- الخطّة لا تتوقع منك دخول معركة .

- ماذا تتوقّع ؟

- يكفي أن تقوم بأي عمل تعتبره إسرائيل ذريعة للهجوم .

- أي عمل ؟! ماذا تقصدين ؟! قلت لك أني لن أسمح لإسرائيل

بجرّي إلى معركة معها في هذه الظروف .

- أعرف هذا ، يا سيادة الرئيس . إسرائيل هي التي ستبدأ المعركة ، وستنتصر .

- تنتصر ؟! فال الله ولا فالك !

- تتوقّع الخطة انتصار إسرائيل . ويؤسفني أن أقول أن هذا ما سيحدث .

- أكملي ! أكملي !

- سوف تتخذ سيادتك إجراءً يستفز إسرائيل ويبدو أمام العالم كما لو كان يهدّد أمنها . لا يهمّ نوع الإجراء . قد تطرد القوات الدولية . أو تمنع الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة . أو تعلن حالة الطوارئ . أو ترسل بعض القوات إلى الحدود الإسرائيلية . في هذه الأثناء ، سوف يكون هناك ضغط دولي عنيف ، تقوده أمريكا ، يدعوك إلى عدم البدء في القتال . سوف يقول لك الجميع أنه من الممكن الوصول إلى حل دبلوماسي . ثم تبدأ الضربة الإسرائيلية ، وينتهي الأمر .

- ضربة وينتهي الأمر ؟! سلمى ! لقد صمدت مصر أمام العدوان

الثلاثي . لماذا تتوقعين أن تنهار مصر الآن ، بهذه السهولة ؟

– سيادة الرئيس ! التاريخُ لا يعيد نفسه ، والأوضاع تغيّرت تماماً . قوّاتنا غير مستعدّة . ولن يقف معنا أحد . وإسرائيل تتدرّب منذ خمس سنوات على الضربة . سوف تقلع الطائرات الحربية الإسرائيلية كلّها ، كلّها يا سيادة الرئيس ، أكثر من ٤٠٠ طائرة ، وتحلّق على ارتفاع منخفض بحيث لا تتمكن أجهزة الرادار من رصدها ، ثم تهاجم الطائرات المصرية ، وتدمّرها ، تدمّرها كلّها يا سيادة الرئيس . مع اختفاء الطيران المصري ، تصبح نتيجة المعركة محسومة ، أقلّ من شهر ، في تقديري .

تصمت سلمى . ويصمتُ الرئيس منقّلاً عينيه بين وجهها وسقف الغرفة ، وعلبة السجائر ، ثم يقول :

– أنا لا أستهين بقوة إسرائيل . أنا أعرف كل شيء عن القوّات الإسرائيلية وفعاليتها ، وخاصة الطيران . وأنا أعرف أن قيادتنا العسكرية لا يمكن الاعتماد عليها . ومع ذلك . . مع ذلك . . أجد من الصعب أن أصدّق أن تغامر إسرائيل . . .

– تبدو الخطة جنونية ، يا سيادة الرئيس . ولكن الذين وضعوها

أنفقوا الكثير من الوقت والجهد في التخطيط . لن يشكّ أحد في وجود مؤامرة إلاّ بعد أن ينتهي كل شيء . وحتّى عندما ينتهي كل شيء قد لا يشكّ أحد في وجود مؤامرة . أرجوك ، يا سيادة الرئيس ، صدّقني ! هناك سلسلة من الإجراءات يجب أن تتخذها على الفور . الآن!

- أن أعلن استعدادي للصلح مع إسرائيل ؟!

- الصلح مع إسرائيل هو الهدف النهائي للخطة ، ولكن هذا يتطلّب بعض الوقت . ما يهمّ الآن ، هو أن تبادر إلى إنقاذ مصر من الهزيمة .

- وماذا تريدين أن أفعل ؟

- أعد القوات المصرية من اليمن ، فوراً . أعد تشكيل القوّات المسلّحة ، من أوّلها إلى آخرها ، فوراً . هذه قائمة بأسماء المسؤولين المدنيين والعسكريين الذين يجب أن تستغني عنهم ، فوراً .

تخرج سلمى ورقةً من الملفّ تقدّمها إلى الرئيس الذي يتجاهلها تماماً . تعيد سلمى الورقة إلى الملفّ . ويقول الرئيس ضاحكاً :

- سلمى ! تُريدين ، باختصار ، ثورة جديدة ؟! دبّابات تتحرك ،

وتحاصر مقرّ القيادة ، وتعلن البيان رقم ١ .

- هذا ، بالضبط ، ما أريده ، يا ريّس ! هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مصر .

يقوم الرئيس ، وتقوم سلمى ، ويصافحها ، ويقول :

- سلمى ! أشكرك ! تأكّدي أنني سوف آخذ معلوماتك بمنتهى الجدّية . أما عن الثورة الجديدة فأرجو أن تنسيها وتمزّقي القائمة .

تنسحب سلمى ، وقبل أن تغادر المكتب ، يناديها الرئيس :

- سلمى ! كوني مطمئنة ! لا تقلقي !

تنظر إليه سلمى بأسى . وتقول :

- سيادة الرئيس ! قمتُ بواجبي ، والباقي عليك . كان الله في عون مصر ، وفي عونك .

*

تصحو العجوز ، تستمع إلى كلام غريب : « . . . وقد جاءت الضربة القاصمة صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ عندما قامت الطائرات الإسرائيلية بهجوم شامل مفاجئ . . .» تدهش وتقفل الراديو بغضب . أيّ ضربة قاصمة ؟! ألم تحذّر الرئيس جمال عبد الناصر من المؤامرة

الشرّيرة ؟! ألم تحذّره بنفسها ؟! ألم يصدّقها ؟! تتقلب العجوز ، وتعود إلى النوم .

*

تتلقّى العجوز الراديو الضخم ، وتسأل سليم مستغربة :

– لماذا جئت لي براديو لا أستطيع حمله إلاّ بصعوبة ؟

– هذا إنتاج روسي . ماركة مشهورة . تستطيعين اعتبارها من أحسن الماركات في العالم .

– روسي ؟!

– نعم .

– لم أسمع براديو روسي من قبل .

– لا يعرف الماركة إلاّ الخبراء .

– حسناً ! وهل ينقل جميع الإذاعات ؟

– نعم ، يا أمي .

– وهل يحضر يونس بحري ؟

ينظر سليم إلى العجوز دون أن يعرف هل تداعبه ، كما تفعل أحياناً ، أم أن الأمور التبست عليها ، كعادتها أحياناً أخرى ، ويقول :

– نعم ، يا أمي .

تبتسم العجوز ، وتقول :

– وهل ينقل الحقائق فقط ، أم يكذب عليّ مثلما تكذب أنت يا سليم ؟

تضحك العجوز ، ويضحك ابنها معها .

*

تعبث أصابع العجوز بالراديو الروسي الجديد . وتجيء محطّة بعد محطة ، ولغة بعد لغة ، وأغنية بعد أغنية . وهي تغفو وتصحو . ثم تتنبّه فجأة . حديث عن آخر أيام العرب في الأندلس . يقول الراديو : « . . . ولا يزال الإسبان حتى أيامنا هذه يطلقون على الجبل الذي ألقى منه أبو عبد الله الصغير نظرته الأخيرة على غرناطة «شهقة العربي الأخيرة» . وهناك على قمّة الجبل ، التفتت عائشة إلى ابنها ، أبي عبد الله ، وقالت :

إبْك مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

تنتفض العجوز كالملسوعة . أيّ مُلكٍ مضاع ؟! وأيّ عائشة ؟! هذا

الراديو الروسي لا يعرف شيئاً عن التاريخ الحقيقي لواحد من أعظم أبطال المسلمين ، زوجها محمد ، أبي عبد الله الكبير .

*

لا تذكر سلمى ، بالضبط ، متى بدأ نزاعها مع حماتها فاطمة ، اسمها فاطمة لا عائشة كما زعم الراديو ، ولكنها لا تستبعد أن يكون النزاع قد نشأ في الشهر الأول من زواجها . رغم أن فاطمة هي التي اختارت سلمى زوجة لابنها محمد ، إلاّ أن الأمور بين المرأتين سرعان ما أخذت تنحدر إلى هوّة الكراهيّة المتبادلة . لا ! لم تكن القضية الخلاف التقليدي بين الحماة والزوجة ، لم تكن القضية المنافسة المعتادة على قلب الرجل الحائر بين أمّه وزوجته . كان الخلاف بين المرأتين عميقاً عمق المأساة التي عاشتها الأندلس في عصر ملوك الطوائف .

كانت سلمى مسكونة بأحلام المجد العربي القديم . كانت سلمى تطمع ، أن يكون زوجها محمد ، أبو عبد الله ، البطل الذي يعيد فتوحات الخليفة الداخل والخليفة الناصر . وكانت سلمى ترى أن الفرصة لم تفلت بعد ، وأن دولة بني الأحمر تستطيع أن تقود

الانطلاقة التي تجمع الشمل ، وتوحّد الصف ، وتقف في وجه الأعداء . كانت سلمى تؤمن أن الجرم الأعظم الذي ارتكبه ملوك الطوائف كان تحالفهم مع ملوك الأسبان ضد إخوانهم المسلمين .

وفي الجانب الآخر ، لم تكن فاطمة مسكونة بشيء سوى الغيرة والحقد وهموم السلطة الصغيرة . كانت تريد التخلّص من زوجها السلطان ، أبي الحسن ، بأيّ وسيلة . وكانت تريد أن يحل ابنها محلّ أبيه مهما كان الثمن . كانت غيرتها من محظية زوجها الإسبانية تمنعها من التفكير في أي شيء يتجاوز الانتقام الرخيص . وجد محمد نفسه ممزّقاً بين الأم التي تدفعه دفعاً إلى الانقضاض على أبيه ، وبين الزوجة التي تحثّه ، بعنف ، على إعادة الوئام إلى الأسرة .

شهدت سلمى ، بنفسها ، صفحات الصراع الدامي بين الأقارب . كان السلطان ، أبو الحسن ، في نزاع دائم مع أخيه ، محمد أبي عبد الله الزغل ، الذي يفوقه شجاعة ومقدرة . وكان زوجها يرقب الصراع بين أبيه وعمّه دون أن يحرك ساكناً . وكانت فاطمة ترقب نزاع الأخوين وهي تتمنّى في قرارة نفسها ، أن يهزم زوجها . إلاّ أن الأمور سارت في صالح أبي الحسن ، واضطر الزغل إلى الفرار إلى ملقا ليقود

من هناك تمرّداً على أخيه سلطان غرناطة .

ما كادت الأمور تهدأ لأبي الحسن ، حتى بدأت فاطمة دسائسها ضدّه ، ولم يكن ابنها سوى مخلب قط لا حول له ولا قوة . فشلت سلمى في إقناع زوجها بالوقوف وراء أبيه وتجاهل مكائد أمّه . كان زوجها ريشة في مهبّ الريح يصغي بعقله إلى زوجته ، ويصغي بقلبه إلى أمّه . ذات يوم ، رغم توسّلات سلمى وبكائها ، خرج زوجها ثائراً على أبيه ، وخرجت معه مجموعة من الدهماء حركتها دسائس فاطمة . هرب الأب ، وبويع الابن ، محمد أبوعبد الله ، سلطاناً لغرناطة .

ولم تنته دسائس الحماة عند هذا الحدّ . وقفت في وجه كل محاولة للصلح بين الأب والابن . قطعت الطريق على كل المساعي التي بذلها المخلصون لإعادة الوئام إلى الأقارب المتحاربين . وتفتّق ذهن فاطمة عن مكيدة تصوّرتْ أنها ستقوّي مركز ابنها : الزّج بالسلطان الجديد في مغامرة طائشة ضد الإسبان . كانت سلمى موقنة أن المغامرة سوف تنتهي بالفشل المحتوم . بكت سلمى وهي ترجو زوجها ألاّ يلقي بنفسه في المصيدة . أقسمت له أنه لن يكون هناك نصر ما

دام مختلفاً مع أبيه ، وما دام أبوه مختلفاً مع عمّه . حذّرته من الفخ الإسباني الذي سيقع فيه بمجرّد أن يغادر غرناطة . إلا أنه ، للمرّة الثانية ، قرّر أن يتجاهل زوجته وأن ينساق مع مخططات أمّه .

بعد أيام قليلة من خروجه من غرناطة وقع أبو عبد الله أسيراً في يد الإسبان . عمّت الفوضى أرجاء غرناطة . جاء الأب المخلوع ، واستقبلته الجماهير التي خلعته بالترحاب . وجاء العم الهارب فوجد ترحيباً أكبر من الجماهير ذاتها . عاد الخلاف القديم بين الأخوين . وفي هذه الأثناء ، اختفت فاطمة عن مسرح الأحداث ، مكتفية بإذكاء نار الفتنة بين الأخوين من بعيد .

كان القرار الذي يواجه سلمى قراراً صعباً دامياً إلاّ أنه لم يكن لديها خيار . لا يمكن أن تستقرّ الأمور في دولة بني الأحمر ، وفاطمة على قيد الحياة تنفث المزيد من سمومها . قرّرت سلمى أنه لا يفلّ الحديد إلاّ الحديد ، ولا تفلّ المؤامرة إلاّ المؤامرة . في لقاء طويل مع أبي زوجها شرحت سلمى للسلطان دور زوجته في كل ما حدث ، واقتنع السلطان بخطورة فاطمة التي سرعان ما توفيت ، غير مأسوف عليها ، مقتولة في ظروف غامضة . بعد ذلك كان على سلمى أن تقنع

السلطان أن الظروف الحرجة تقتضي أن يتنازل لأخيه محمد الزغل وأن يقف بجانبه ، ووافق السلطان بعد شيء من التردد . نجحت سلمى ، بمفردها ، في خلق جبهة عائلية متماسكة في غرناطة ، جبهة يقودها أخوان متّحدان .

ثم جاء الفصل الثاني من خطة سلمى . نجحت ، بمعونة السلطان الزغل ، من الدخول ، متنكرة ، إلى زوجها في سجنه . اكتشفت سلمى أن الإسبان يفاوضونه على أساس أن يعود إلى غرناطة ومعه جيش إسباني ، ويزيح عمّه عن العرش ويحلّ محله ، مقابل التحالف معهم في المستقبل . وجدت سلمى زوجها كعادته ، ضائعاً ، لا يستطيع أن يتّخذ قراراً . من ناحية ، لم يكن يريد أن يتحوّل إلى دُمية في يد الإسبان . ومن ناحية أخرى ، كانت شهوة السلطة التي بذرتها أمّه في أعماقه تدفعه إلى القبول بأيّ شيء ، حتّى الخيانة ، في سبيل العرش . إلا أن أبا عبد الله كان ، في غياب أمّه الماكرة ، أكثر استعداداً لقبول أفكار سلمى . وهكذا اتّفقت معه على أن يتظاهر بالتحالف مع الإسبان ، وأن يعود مع الجيش الإسباني ، وأن يقود الجيش إلى كمين يقضي عليه . عندما تركت سلمى زوجها كان شعاعُ التصميم الذي

يبرق في عينيه يعلن ميلاد البطل الذي طالما انتظرته .

ثم جاء الفصل الثالث من خطة سلمى . بعد عودتها قالت سلمى للسلطان الزغل أن زوجها سوف يجيء على رأس جيش جرّار من الإسبان يعيده إلى السلطة رغماً عن الجميع . أوضحت سلمى للسلطان أن السبيل الوحيد لإنقاذ دولة بني الأحمر هو أن يعترف السلطان بابن أخيه حاكماً شرعياً ، ويحارب تحت لوائه . بفروسية ورجولة وشهامة ، وافق الزغل ، وعكف على إعداد الكمين .

عاد زوجها أبو عبد الله إلى غرناطة ، وقاد عمّه الهجوم الذي أباد جيش الإسبان . كان الحلف بين السلطان القادم وبين عمّه الشجاع ، بمؤازرة الأب ومساندته ، البداية الحقيقية لاستعادة الأمجاد العربية في الأندلس . انطلق جيش أبي عبد الله ، وبعد معركة فاصلة مع الملك الإسباني فرديناند والملكة ايزابيلا ، أصبح أبو عبد الله يلقّب بأبي عبد الله الكبير . أخذت الممالك الإسبانية تتهاوى أمام البطل الجسور واحدة تلو الأخرى .

*

ومع ذلك ، يتحدّث الراديو عن الملك الصغير ويشوّه حقائق

التـاريخ . تقـرّر سلمى أن الـراديو الروسـي هو أكـذب راديو عـرفـتـه في حـيـاتهـا . تقـرّر أن تتـخلص منه وأن تطلب من سليم ألا يعـود ، في المستقبل ، بجهاز روسي . تتقلب طويلاً ، ثم تغفو .

*

تعبث أصابع سلمى بالراديو الجديد ، ويقف المؤشر ، هناك حديث عن أوبريت جديدة وضعـهـا الفنان منصور الرحبـاني عن أبي الطيّب المتنبي . يتحدّث الراديو عن سيف الدولة ، وعن خولة ، وعن كافور ، وعن عضد الدولة ، ولكنه لا يقول شيئاً عن المرأة التي كانت أهمّ شيء في حياة المتنبي ، وبقيت ، عبر التاريخ ، بلا اسم ، وبلا وجه ، وبلا وجود . تغفو سلمى . وتصحو . وتغفو .

*

تنظر سلمى إلى زوجها الجريح ، وتقول بحنان :

– أحمد ! أحمد ! هذه الجراح ستقتلك .

ويردّ أبو الطيب :

– لا ، يا سلمى ! أنت التي ستقتلينني .

– أنا ؟! أقتلك أنت ؟! هل جُننت ؟!

- هذه مهمّة لا يستطيع القيام بها غيرك .

- أن أقتلك ؟!

- نعم . أن تقتليني .

- ولماذا اخترتني أنا ؟

- لماذا ؟! سلمى ! لأنك المرأة الوحيدة في حياتي . المرأة الوحيدة التي عشقتها فوق حدود العشق . المرأة الوحيدة التي أفضيت إليها بكل أسراري . والآن ، سوف تكونين المرأة الوحيدة التي تعرف سرّي الأخير .

- أحمد ! قبل أن تدخل في سرّك الأخير ، أخبرني عن سرّك الأول . لماذا تركتني مجرّد فراغ في حياتك ، مجرّد هباء في الصحراء ؟ لم يعرف اسمي أحد . لم يرني أحد . يتحدّث الناس عن أم مُحسّد ويجهلون من تكون . لماذا ؟ لماذا ؟

- لأني كتمت الأشياء الغالية في حياتي جميعها عن أعين الناس جميعهم . أنت تعرفين هذا جيداً . كتمت حقيقتي ، وحقيقة نسبي . هل يعرف إنسان من هو أبي أو . . .

- أنا أعرف من هو أبوك .

- أنت تعرفين ، ولكن هل يعرف أحد غيرك ؟ حتّى ابننا مُحسّد لا يعرف جده .

- مُحسّد ؟! أين مُحسّد ! هل كان معك في المعركة ؟

- سوف أحدثك عن محسّد بعد قليل ، بعد أن أجيب على سؤالك . هل يعرف أحد مدى طموحي ؟ هل يعرف أحد سرّ علاقتي بالقرامطة ؟ هل يعرف أحد من هي أمّي ؟ هل يعرف أحد عن جدتي شيئاً سوى قصيدتي عنها ، قصيدتي المليئة بالطلاسم ؟ هل يعلم أحد لماذا وضعت في السجن ؟ هل يعرف أحد القصة الحقيقية لإدّعاء النبوّة ؟

- أحمد ! لم أفهم .

- بل تفهمين ! لقد كتمتُ الأشياء الثمينة في حياتي ، وأنت أثمن ما فيها . أنت أعظم الأسرار في حياتي ، وما قيمة حياتي بلاِ أسرار ؟ في اللحظة التي تنكشف فيها أسرار حياتي ، تنتهي الأسطورة ، وعندما تنتهي الأسطورة أنتهي أنا ، أتحوّل إلى شاعر عادي بين آلاف الشعراء وتنتهين أنت ، تصبحين زوجة عادية ، وأمّاً عاديّة .

- إذن ، فأنت أبقيتني سرّاً في حياتك حفاظاً على حياتي ؟!

- حياتك ؟ لا ! الحياة لا تهمّ . الحياة ظل زائل .

ما يهمّ هو أن يبقى المرء في ذاكرة التاريخ ما بقي التاريخ .

- «وتركك في الدنيا دويّاً . . .»

- تماماً !

- ولكنك لم تقل فيّ شعراً كما قلت في . . .

- سلمى ! سلمى ! أنت تعابثينني . أنت تعرفين أني كتبتُ نوعين من الغزل ، النسيب التقليدي الذي يجيء في مطلع كلّ قصيدة ، وشعر الحب الحقيقي ، وقد كان كلّه ، كلّه بلا استثناء ، عنك أنت .

- كنت تقول دائماً : «الحب ما منع الكلام الألسنا» .

- ولهذا لم أكتب عنك سوى أبيات قليلة ، أبيات تخفى على الشرّاح ولكنها لا تخفى على العشّاق .

- كنت تقصدني حين تكلّمت عن الغزالة الكاعب .

- لم أقصد غيرك .

- وقصدتني حين قلت : «سقانا وحيانا بك الله . . .»

- لم أقصد سواك .

– وقصدتني حين قلت : «لعينيك ما يلقى الفؤاد . . وما لقي» .

– سلمى ! لا يوجد وقت . . .

– «فلاة إلى غير اللقاء تُجاب» ؟!

– نعم ، يا سلمى ، إلى غير اللقاء .

– ولكن لن أدعك تفلت بهذه السهولة . ماذا عن غزلك بخولة ، أو «فعلة» كما سميتها ؟

– سلمى ! لم أتغزّل بخولة . رثيتها .

– كان رثاءً شبيهاً بالغزل .

– كان الرثاء الذي يشبه الغزل ما قلته في أمّ سيف الدولة . هل تعتقدين أني كنت أعشقها ؟!

– ولكن رثاءك في خولة . . .

– سلمى ! هل نسيت ؟ كانت خولة شريكة في الخطة . هي التي أقنعت أخاها بتنصيبي وليّاً لعهده . كانت خوله تعلم أنني كنتُ وحدي ، وحدي أنا ، القادر على لم شمل تلك القطعان البائسة من البشر . . .

– ثم غيّر سيف الدولة رأيه .

– أقنعه أبناء عمه بتمزيق العهد السرّي الذي كان بيننا . رفض في البداية ، ثم انصاع لرغبتهم . ولم يكن أمامي سوى الرحيل .

– من عهد نقضه سيف الدولة إلى عهد نقضه كافور ؟!

– لم يعدني كافور بخلافته . وعدني بأن يجعلني والياً على نصف مصر ، ثم غيّر رأيه بعد أن أقنعه سيف الدولة . . .

– «الذي شارك النّبي عليه الصلاة والسلام النبوّة ، ألا يشارك كافور العبد الأسود المُلك ؟»

– كان الملوك الأرانب يعرفون أنني بمجرّد أن أعلن نسبي الحقيقيّ ، بمجرد أن أعلن ولادة الدولة العلوية العربية الحقيقية ، لن يبقى منهم عبد أو حرّ على عرشه .

–ولماذا لم تعلن الدولة دون ولاية ؟

– دون ولاية ؟ هل تظنين أنني كنت سأبقى لحظة واحدة على قيد الحياة ؟! النسب ، يا سلمى ، لا يغني عن القوة . والقوة بلا نسب ، حكم كحكم الخصيّ الأسود .

– ولكن الخصيّ الأسود . . .

– سلمى ! أرجوك ! لا تتحدّثي ، الآن ، عن كافور ، أو عن سيف

الدولة ، أو عن عضد الدولة ، أو عن بقية الأوثان البشرية التافهة . ليس لأحد منهم شرف النسب ولا شرف الطموح الذي يمكن أن يعيد الخلافة إلى الحياة .

- الخلافة ؟! ولكنك لم تخبرني أنك كنت تطمع أن تكون الخليفة .

- لم أرد أن أكون خليفة مهزلة . كنت أريد أن أكون خليفة حقيقياً على رأس خلافة حقيقية ، تقضي على هذه الدويلات التعسة ، وتكتسح الدنيا بأسرها .

- الدنيا بأسرها ؟!

- لم لا ؟! «البر أوسع . . والدنيا لمن غلبا» .

- وقد غلبوك ! تآمروا عليك وغلبوك !

- «عش عزيزاً . . أو مُتْ وأنت كريماً» .

- وعدتني أن تحدثني عن مُحسّد .

- تركته مع القتلى ، يا سلمى ، وهربت .

- هربت يا أحمد ؟!

- نعم ، يا سلمى . هذا هو السرّ الأخير . وجاء الآن دورك . ماذا

سيقول التاريخ إذا عرف الناس أني هربت من القتال وتركت جثة ابني في الميدان ؟ لا بدّ أن يرى الناس جثتي ، بقرب مُحسّد .

– أحمد ! ماذا تريد أن . . .

– خذي سيفي هذا ، وضعيه هنا ، واتّكأي عليه حتّى يدخل قلبي . ثم اطلبي من العبد أن يحمل جثتي إلى الميدان ويضعها بقرب مُحسّد . لن يعيش العبد بعدها .

– لا أستطيع . . .

– سلمى ! ضحيّتِ كثيراً من أجلي والآن أريد منك التضحية الكبرى .

– ولكن . . .

– سلمى ! هل تريدين أن تكوني زوجة رجل فرّ من الميدان ؟

تشهر سلمى سيف زوجها من غمده ، وتضعه على صدره ، وتضغط ، وتسمع الشهقة .

*

يتكلم الراديو عن الموقعة التي قتل فيها المتنبي ، وتبتسم العجوز وهي تستمع إلى الهراء . لا يعرف الراديو أن المتنبي سقط صريع مؤامرة

كبرى شارك فيها كل ولاة عصره ، كلهم بلا استثناء . ولا يعرف الراديو أن قصيدة الهجاء البذيئة عن «ضبّة وأمه الطُرطُبه» لم تكن من شعر زوجها . لا يعرف الراديو شيئاً عن حياة المتنبي الحقيقية ، أو نهايته الحقيقة ، أو امرأته الحقيقية . تتقلب العجوز ، ثم تغفو وهي منبسطة الأسارير .

*

تتأمل العجوز الراديو الذي قدمه لها سليم ، وتقول :

- أرجو ألاّ يكون ماركة روسية .

- ماركة هولندية ، يا أمي .

- هولندية ؟!

- فيلبس . الماركة المشهورة .

- فيلبس ؟! كان عندي راديو فيلبس ، كنتُ أستمع إلى خطب جمال عبد الناصر خلاله . هل تذكر ؟

- أذكر ، يا أمّي .

- ولكنه كان جهازاً كبيراً جداً .

- لم تعد هذه الأجهزة تُصنّع ، يا أمي .

- هل أنت متأكد أن هذا الراديو ماركة فيلبس ؟

- متأكد تماماً .

- وهل تظن أنه سيبثّ خطب جمال عبد الناصر ؟

ينظر سليم إلى أمه التي تبتسم ابتسامتها الغامضة ، ويبتسم بدوره ، دون أن يجيب .

*

تعبث أصابع العجوز بالراديو الجديد وتمتلئ غرفة النوم بالأصوات . تتنقل أصابع العجوز . وتتغيّر الأصوات ، تقف الأصابع عند برنامجها المفضل «نافذة على التاريخ» . تروي الحلقة قصة سقوط بغداد في يد التتار والمجازر التي أعقبت دخول هولاكو عاصمة الخلافة . تصاب العجوز بالذهول . سقوط بغداد ؟! دخول هولاكو ؟! ماذا حدث لهذا الراديو ؟!

*

عندما زفّت سلمى إلى ابن عمها ، الخليفة المستعصم ، لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة ، ولم يكن زوجها يكبرها إلا بسنتين أو ثلاث . أدركت سلمى منذ شهور الزواج الأولى أن الخليفة عاجز عن تسيير

أمور الدولة . ذهبت كل جهودها لإقناعه بالاهتمام بشؤون الحكم هباءً . كان الخليفة مولعاً بالقنص ، وبالغناء ، وبالمحظيات ، وكان يترك القرارات الخطيرة للحاشية . لم تجد سلمى أمامها خياراً سوى أن تجمع خيوط السلطة في يديها ، وتحكم من وراء الستار . استخدمت سلمى كلّ جمالها ، وكلّ ذكائها ، وكلّ طموحها . تدريجياً ، يوماً بعد يوم ، شهراً بعد شهر ، سنة بعد سنة أخذ نفوذها يتزايد ويتعاظم . بإستخدام سلاحي الذهب والسيف ، تمكنت سلمى من إخضاع رجال الخليفة لرغبتها .

لم يبق خارج نفوذها سوى شخص واحد ، هو ابن العلقمي الذي أصرّ الخليفة على الاحتفاظ به وزيراً . ومع ذلك كانت سلمى تدرك أن التخلّص من ابن العلقمي ، بعد أن استقرّت السلطة الحقيقية في قبضتها هو موضوع وقت .

كانت سلمى مشغولة بتتبع تحركات التتار في ديار الخلافة . على أيام الخليفة المستنصر ، أبي زوجها ، حاول التتار دخول بغداد إلا أن قوات الخليفة تمكّنت من صدهم . كانت سلمى مقتنعة أن التتار ، بقيادة هولاكو المرعب ، سيكرّرون المحاولة وأن بغداد سوف تسقط أمام

زحفهم المدمّر . كانت سلمى تدرك تمام الإدراك أنها وحدها القادرة على حماية دار السلام ، وعلى إبقاء دولة بني العباس في وجه الغزو التتري .

لم تنتظر سلمى طويلاً . ذات يوم وصلت إلى المستعصم رسالة من هولاكو يعرض فيها على الخليفة أن يتحالف معه في حرب مشتركة ضدّ الحشاشينْ ، الاسم الشائع الكاذب عن الفرقة الباطنية التي استعصت على التتار . كعادته ، سلّمها زوجها الرسالة دون أن يقرأها . بمجرد أن استوعبت سلمى المضمون ، بدأت الخطّة تومض في ذهنها . بدلاً من تحالف الخليفة مع القائد التتري ضد الفرقة ، ستعمل سلمى على أن تتحالف الفرقة مع الخلافة لصدّ خطر التتار .

أرسلت سلمى رسولاً إلى الشيخ ركن الدين حاكم قلعة «ألموت» ، تخبره بنوايا التتار المبيتة ضدّه ، وتعرض عليه أن يتحالف معها . رحّب حاكم القلعة بالفكرة ، وأصدر تعليماته إلى رجاله بالتفرّق من مواقعهم ، وتشكيل صفوفهم من جديد على هيئة عصابات تتابع جيش التتار في انتظار الوقت المناسب للانقضاض ، أرسل حاكم «ألموت» مجموعة من أفضل رجاله إلى بغداد ، لتكون تحت تصرف

سلمى .

في هذه الأثناء بدأت جموع هولاكو تزحف في كلّ اتجاه ، والخليفة غارق في مباذله لا يشعر بالخطر القادم . كان إبن العلقمي يخدّره كل يوم بوعود كاذبة ، ويوهمه أن بوسعه ترتيب صلح مع هولاكو يبقى الخليفة على عرشه . عندما أيقنت سلمى أن ابن العلقمي تحوّل إلى عميل مأجور من عملاء هولاكو ضربت ضربتها . أوعزت إلى بعض أفراد المجموعة باغتيال الوزير الخائن . نشبت على إثر الاغتيال مناوشات بين أنصاره وبين قوات الخليفة انتهت باستسلام المتمردين .

كان جواسيس سلمى يحيطونها علماً بتحركات هولاكو . جاءتها تقارير تؤكّد أن ماريا ، زوجة هولاكو المسيحية ، لا تطيقه ، وأنها مستعدّة للتعاون في أي مسعى يؤدي إلى القضاء عليه . بدأت المراسلات السرّية بين سلمى وماريّا . عندما اقترب هولاكو من بغداد ، كانت خطة سلمى قد اكتملت ، وكان أفراد الفرقة جاهزين للتحرك .

في ليلة الصفر ، جمعت سلمى قواد الجيش ، وأمرتهم باسم

الخليفة ، أن يبدأوا الهجوم على معسكر هولاكو ، في منتصف الليل .
قبيل منتصف الليل ، سهّلت ماريا لأفراد الفرقة دخول الخيمة الكبرى ، حيث كان هولاكو مجتمعاً مع كبار قوّاده . خلال دقائق كان القائد التتري وقوّاده جثثاً هامدة . وفي هذه الأثناء كانت قوات الخليفة تهاجم المعسكر . في الوقت نفسه ، كانت عصابات الفرقة تهاجم التتار من كل مكان . أصيب التتار بالذهول ، وهم يرون قائدهم مقتولاً ، ومعسكرهم يتعرض في الظلام لضربات قاتلة من كلّ اتجاه . في ساعات قلائل قُتل من قُتل من التتار ، وهرب الباقون .

كان الفجر يقبّل وجنتي بغداد ، وكان المستعصم مع مجموعة من ندمائه يصغي إلى غناء القيان . دخلت سلمى المقصورة وقالت لزوجها بصوت حاولت أن تخفي منه نبرة الاحتقار :

- يا أمير المؤمنين ! انتصر جيشك على جيش التتار . قم ! قم وتقبل تهنئة المسلمين بانتصارك العظيم .

*

بقيت أصابع العجوز بالراديو ، وهي بين اليقظة والنوم تستمع إلى قصيدة طويلة عن صلاح الدين الأيوبي ، وعن تحرير بيت المقدس ،

وعن حطين ، تبتسم وتغفو .

*

تذرع سلمى خيمتها وهي في حالة قريبة من الجنون متأرجحة بين الخوف والأمل . هي لا تشكّ أن زوجها الشجاع ، صلاح الدين ، قادر على هزيمة الفرنجة في حطّين . إلا أنها تعرف قوّة العدوّ . وكيف لا تعرف قوّته ، وهي التي زوّدت زوجها ، عبر معاركه العديدة ، بتفاصيل هذه القوّة ؟ تتوقف سلمى ، وتتدافع الذكريات في رأسها . تقعد على البساط وتستسلم لطوفان الذكرى .

تتذكّر كيف رفض صلاح الدين ، في البداية ، أن يأذن لها بالتسلل إلى معسكر العدوّ ، تتذكر كيف صاح في وجهها :

-سلمى ! أنت زوجتي ، زوجتي المفضّلة . المرأة الوحيدة التي أحببتها . كيف أتركك تغامرين بحياتك ؟ كيف أسمح لك بالذهاب إلى العدو في عقر داره ؟

وتتذكّر ردّها الرقيق العنيف :

- سيّدي السلطان ! لأنني زوجتك يجب أن أشاركك الجهاد . منذ سنين وأنت تدخل معركة ، وتخرج من معركة . تعود إليّ مثخناً

بالرماح والجراح . ولا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى تضميد جراحك . إلاّ أنني اتخذت قراراً لا رجعة فيه . لن أكتفي بالانتظار سوف أسبقك إلى معسكر الفرنجة ، وأعود إليك بالأخبار .

وتتذكّر كيف حاول السلطان ، مجدّداً ، أن يثنيها عن قرارها :

– سلمى ! أنت تعرفين أن لديّ عشرات العيون . تعرفين أنه لا تخفى عليّ شاردة أو واردة عن العدو . ماذا بوسعك أن تخبريني ؟

وتتذكر كيف اتسعت ابتسامتها وهي تقول :

– عشرات العيون ؟! إلاّ أن معظم عيونك يخافون الاقتراب من العدو . يكتفون بنقل الشائعات . ألا تذكر كم أوشك العدو على الانتصار بسبب معلومات كاذبة نقلها إليك من نقلها ؟

وتتذكر قهقهة السلطان ، وهو يقول :

– وأنتِ ، بمفردك ، تستطيعين أن تنجزي ما لم يستطع رجالي الأشدّاء إنجازه ؟

وتتذكر سلمى كيف دغدغت مشاعر الفحولة في زوجها وحبيبها وسلطانها :

– أنا أفعل ما لايستطيع رجالك الأشدّاء أن يفعلوه ؟ أنا ، يا

سيدي السلطان ؟! أنا امرأة ضعيفة . لا أعرف كيف أقاتل كما يقاتل فرسانك . لا أستطيع أن أحمل سيفاً أو أوتر قوساً . ولكنني لن أحارب بالسلاح . سوف أحارب بالخديعة . وأنت ، سيّدي السلطان ، تعرف أن أقوى الرجال لا يستطيع أن يتغلّب على امرأة ضعيفة في فنّ الخديعة .

وتتذكر سلمى ابتسامة زوجها العريضة ، وهو يقول :

– اذهبي ، على بركة الله . وكوني ، دوماً ، على حذر . وارجعي مع أوّل بادرة للخطر .

تسرح سلمى مع ذكرياتها ، تعود إلى الخطر الذي كانت تعيش معه ، ليل نهار . تتذكّر كيف أتقنت ، مع المران ، فن التنكّر : إخفاء نفسها في ثياب غلام فرنجي ، أو جنديّ فرنجي ، أو امرأة فرنجية . ولم ينكشف أمرها ، قطّ . وماذا كان يمكن أن يحدث لو بان سرّها وعرف الأعداء أنّها زوجة صلاح الدين ؟ هل كان أمامها من مصير سوى القتل الفوري ؟ أو التعذيب حتى الموت ؟ إلاّ أنها نجحت في خديعة الفرنجة . كانت تعود بعد كل زيارة بالمعلومات المفصّلة التي فشل جواسيس السلطان في الحصول عليها . كات تنقل إلى زوجها كلّ

شيء : عدد الفرنجة ، ونوعية عتادهم ، وما هو أهم ، حالتهم المعنويّة . وكان السلطان يعتمد على مشورة سلمى . يهاجم عندما تنصحه بالهجوم ، ويتريّث حين تنصحه بالتريّث . ويضمّها ، بحرارة وشوق ، كلما عادت سالمة من رحلة من رحلاتها الخطرة .

لم ينكشف أمرها ، قط ؟ وماذا عن تلك المرّة ؟ ماذا عن تلك المرّة يا سلمى ؟ تحاول سلمى ، الآن ، أن تطرد الذكرى كما طردتها ، كلّما أطلت ، عبر السنوات الماضية إلاّ أنها تفشل . تلحّ الذكرى وتلحّ . تعيدها إلى تلك الليلة التي أخفت أمرها عن السلطان ، أخفت أمرها عن الجميع ، ونجحت أو كادت في إخفاء أمرها عن نفسها . تلك الليلة التي قضتها في خيمة ملك الفرنجة ، ملكهم الشجاع الذي يسمّونه «قلب الأسد» .

يحمرّ وجه سلمى وهي تتذكّر الأحداث المثيرة . كانت متنكّرة في زيّ صبيّ فرنجي من صبيان الخدمة في المعسكر . كانت تنتقل من مكان إلى مكان ، تسمع وترى ، دون أن يحسّ بها أحد . وفجأة ، أفلت شعرها الطويل من عقاله . كانت بقرب الخيمة الكبرى . وكان أمام الخيمة عدد من الحرّاس يحملون المشاعل . وفضحها الضوء .

وسرعان ما وجدت نفسها أمام الملك الأشقر الوسيم الفارع ، تنتظر صدور حكمه بقتلها . إلاّ أنه لم يأمر بقتلها . كانت تتمنّى لو ماتت قتيلة بحربة فرنجية . كانت تعرف أن زوجها سيحزن كما كانت تعرف أنه سوف يكون فخوراً بها ، بحبيبته الشهيدة المخضّبة بالدماء . إلاّ أن ملك الفرنجة لم يأمر بقتلها .

تزجرُ سلمى الذكرى ، وتصرّ الذكرى على البقاء والتغلغل في أعماق روحها . يحمرّ وجهها مرّة أخرى . ألا يجوز كلّ شيء في الحرب ؟ كل شيء يا سلمى ؟! ألا تجوز كلُّ الخدع ؟ كل الخدع ، يا سلمى ؟! يخفق قلب سلمى بعنف ، ويضطرب جسدها . تباً لهذه الذكرى اللعينة ! لماذا لا تذهب إلى المكان المجهول حيث تموت كل الذكريات بهدوء ، وتُدفن بسلام ؟ لماذا هذا الإصرار على تعذيبها ؟ على تذكيرها بما كان ؟

وماذا كان ؟ هل تذكرين ، يا سلمى ، ما كان ؟ ألم يعطك ملك الفرنجة مخدّراً فقدت على إثره الوعي ؟ لا ، يا سلمى ! لم يكن في الكأس مخدّر . أعطاك كأساً كتلك التي كان يشرب منها ، مليئة بخمر كتلك التي كان يشربها . حسناً ! حسناً ! كنت مضطرة . كنت

مكرهة . لولا أنني خدعته لانفضح كل شيء . لأدرك أنني زوجة السلطان . لعذّبني إلى أن أبوح بأسرار المسلمين . لولا الخديعة لكان السلطان وجيشه في خطر . كان لا بدّ من المداراة . وهل اكتفيت بالمداراة ، يا سلمى ؟ ألم تمنحيه الابتسامة التي سحرت قلب السلطان؟ ألم تضحكي الضحكة التي فتنت السلطان ؟

أواه! حدث هذا قبل زمن طويل . قبل ولادتي . وقبل ولادة السلطان . وقبل ولادة ملك الفرنجة . كيف تتذكّر امرأة ما حدث قبل ولادتها ؟ حسناً ! حسناً ! أنت لا تتذكّرين التفاصيل . ولكنك تتذكرين أنك تسللت من الخيمة ، قبل طلوع الفجر . كان ملك الفرنجة مخموراً ، وكان جنوده نائمين ، هذا كل ما تتذكرينه وماذا حدث بين لحظة الاكتشاف ولحظة التسلل ؛ ماذا حدث ، يا سلمى ؟ رجال الفرنجة مفتونون بنساء المسلمين . وملك الفرنجة فُتن بك ، يا سلمى . فُتن إلى درجة أنه نسي أنك جاسوسة قبض عليها داخل معسكره . فُتن إلى درجة أنه صدق أنك جارية نصرانية هَرَبتْ من ظلم سيّدها المسلم إلى عدل ملك الفرنجة ، فُتن إلى درجة أنه أبقاك في خيمته ، وأعطاك المخدّر . وما الذي شربت ، يا سلمى ؟ كان ما

شربتُ مخدّراً ، بكلّ تأكيد . لأنني ، بعدها ، فقدت الوعي . غبت عن الوجود تماماً . لم أعد إلى الحياة إلاّ والأنسام الباردة خارج الخيمة تلسع وجهي .

تقوم سلمى ، وتذرع الخيمة من جديد . التفاصيل لا تُهُمّ ما يهمّ أنها عادت بمعلومات دقيقة عن العدو ، وعن ملك العدو ، معلومات مكّنت زوجها من الانتصار في معركة بعد معركة . تصحو سلمى من ذكرياتها على صهيل الخيول . تركض لتستقبل الجيش العائد . في المقدّمة ، رأت زوجها مبتسماً ، ومخضّباً بالدماء كالعادة . بمجرّد رؤيته أدركت سلمى أن معركة حطّين انتهت بانتصار صلاح الدين .

*

تأخذ العجوز الراديو الجديد من سليم ، وتقول :

- هل الماركة ألمانية ؟

- نعم ، يا أمّي .

- لا أريد بعد اليوم إلاّ أجهزة راديو ألمانية .

- كما تأمرين ، يا أميّ .

- بقية الماركات تكذبُ يا سليم .

- هذا صحيح ، يا أمّي

- إلاّ أن الصناعة الألمانية متقنة .

- متقنة جداً ، يا أمّي .

- والراديو الألماني لا يكذب .

- لا يكذب ، يا أمّي .

*

تعبث أصابع العجوز بالراديو الجديد . لا تريد الليلة أن تستمع إلى شيء يعكّر صفوها . لا تريد سوى الغناء . يتوقّف الراديو عند أغنية بعد أغنية . والعجوز تصحو وتستيقظ . بغتة ، قفزت إلى قمّة الصحو ، كان الراديو يقدّم . . لعشّاق الطرب الأصيل قصيدة «سلوا كؤوس الطلا» ، من نظم أمير الشعراء أحمد شوقي وغناء كوكب الشرق السيدة أم كلثوم ، ابتسمت العجوز ، اتسعت ابتسامتها وهي تعود بذاكرتها إلى الوراء ، إلى أمير الشعراء .

*

كانت ليلة رائعة لا تتكرر ، ليلة خالدة من ليالي العمر . كان أحمد شوقي يقيم حفلاً كبيراً في قصره الصغير ، «كرمة ابن هاني» .

كان شوقي ، وقتها ، في قمة السعادة . لم يكن قد مرّ سوى شهر واحد على تنصيبه أميراً للشعراء ، وكان يقيم احتفاله الخاص بهذه المناسبة في ليلة حضرها أصدقاؤه من علية القوم ، ومن نجوم الفن والمسرح ، ولم يحضرها أحد من الشعراء .

إلاّ أن قصة سلمى مع تلك الليلة التاريخيّة بدأت قبل أن تضاء الأنوار في حديقة القصر وشرفاته . كانت سلمى أيامها ، في أوج علاقتها الغريبة بأحمد شوقي وبمحمّد عبد الوهاب ، بأمير الشعراء وبمطرب الملوك والأمراء . كان شوقي يعشقها دون أن يعرف عبد الوهاب شيئاً من عشقه ، وكان عبد الوهاب يهيم بها دون أن يعرف شوقي شيئاً عن هيامه . وكانت سلمى حريصة على أن تُبقي كُلاً من العاشقين متعلّقاً بها ، دون أن تبادل أحداً منهم مشاعره ، ودون أن تتصرف على نحو يمكن أن يفضح سرّ المثلّث الغريب .

كان إخفاء السرّ لا يخلو من صعوبة . كان عبد الوهاب يسكن في قصر شوقي بصفة شبه دائمة ، ليلاً ونهاراً ، وكان كثيراً ما يصحبه في تنقلاته . كان على سلمى أن تنتقي بعناية أماكن لقائها بشوقي ، بحيث لا يعرف عبد الوهاب شيئاً عنها ، وكان عليها أن تختار ،

بالعناية نفسها ، أماكن لقائها بعبد الوهاب . إلاّ أنّ القاهرة كانت مليئة بأماكن اللقاء المناسبة : الأندية الخاصة ، والفنادق الكبرى ، والمطاعم النائية التي تنام على ذراع النيل .

مع شوقي كانت سلمى تتحدّث عن الشعر ، وعن الشعر وحده . وكان شوقي مأخوذاً بالفتاة الحسناء التي تحفظ الكثير من شعره ، والكثير من أشعار الشعراء الآخرين . كان أكثر ما يسعد شوقي أن يستمع إليها وهي تنشد شعره ثم تغنّيه بصوت هامس . كان شوقي يقول لها أنها سوف تكون أعظم مطربة في مصر لو احترفت الغناء . وكانت سلمى تؤكّد له أن ظروفها العائلية لا تسمح لها بإحتراف الفنّ . وكان أكثر ما يسعد سلمى أن تستمع إلى شوقي يحدّثها ، بحبّ ، عن الشعراء الآخرين ، الأمر الذي لم يكن شوقي يفعله إلاّ معها . حدّثها عن شاعره الأثير ، البحتري ، وكيف كان يحس بروحه ترفرف فوقه ، وتملي عليه بعض الكلمات ، وهو يكتب قصيدته السينية التي عارض فيها سينيّة البحتري . وحدثها عن شاعره الأثير الثاني الحسن بن هاني ، أبي نُواس ، الذي بلغ من إعجابه به أن سمّى قصره باسمه . وحدّثها عن شاعره الأثير الثالث ، ابن زيدون ، وكيف كان

يشعر بوجوده اليوميّ معه عندما كان شوقي منفيّاً في الأندلس .

كانت سلمى تصغي ، مسحورة ، إلى شوقي يصف لها قصّة الحب العاصفة بين ابن زيدون وولاّدة بنت المستكفي . خلال الحديث ، بدأ شوقي يردد أبيات ابن زيدون :

وَدَّع الصبر محبٌ ودّعكْ

ذائعٌ من سره ما استودعكْ

يقرعُ السن على أن لم يكنْ

زاد في تلك الخطى إذ شيعكْ

يا أخا البدر سناءً وسنىً

رحم الله زماناً أطلعكْ

أعجبت سلمى بالأبيات ، وطلبت من شوقي أن يعيدها ، ثم طلبت منه أن يكتب أبياتاً على نفس الرويّ والقافية ، أبياتاً لها وحدها . شرد ذهن شوقي ، وزاغت عيناه ، وذهل عنها وعن كل ما حوله وبدأ يملي عليها ، وهو بين النائم والصاحي ، أبياتاً مطلعها :

رُدّت الروح على المضني معكْ

أحسنُ الأيام يومٌ أرجعكْ

أما مع محمد عبد الوهاب ، فكانت سلمى لا تتحدّث إلاّ عن الفنّ . كان عبد الوهاب ، بدوره ، مفتوناً بصوتها ، وقد عرض عليها ، مراراً أن يلحّن لها إذا قرّرت أن تحترف الغناء . إلا أنها كانت تعتذر وتقول له أنها تكتفي بترديد أغانيه سرّاً . وكان عبد الوهاب يحدثها عن طموحه . عن مشروعه الكبير في تطوير موسيقى من نوع جديد هي مزيج من الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية . كان عبد الوهاب يرى أن الموسيقى هي تراث البشر جميعاً ، وأنه من غير الطبيعي أن تمتزج الشعوب وتبقى موسيقاها منفصلة . شكى عبد الوهاب لها العناء الذي يلاقيه من معسكر الموسيقيين التقليديين ومن معسكر الموسيقى الغربية ، على حدّ سواء ، لا يريد التقليديون أن تتلوّث الموسيقى الشرقية الأصيلة بآلات ونغمات دخيلة ، ولا يريد أنصار الموسيقى الغربية الكلاسيكية أن يروها وقد تحولت إلى ضجيج طبول وصاجات . كان عبد الوهاب يكرّر أمامها أنه لولا تشجيع شوقي المتواصل لما استطاع أن يواصل مسيرته . كانت سلمى تشعر بالحرج كلما مرّ ذكر شوقي ، وتغيّر الموضوع عائدة إلى الفرق بين السُّلم الموسيقى الغربي والمقامات الشرقية .

كان شوقي يحبها حبّاً يختلط فيه العشق بشيء من حنان الأبوّة .

كان عبد الوهاب يحبّها بأذنه ، بقدر ما يحبها بقلبه . وكانت تعشق شوقي شاعراً ولا تحبّه رجلاً . كما كانت تعجب بعبد الوهاب مغنّياً ولا تميل إليه بمشاعرها الأنثوية . كانت تُحسن التظاهر والتلاعب بالأحاسيس . كان شوقي يعتقد أنها تبادله العشق ، وكان عبد الوهاب مؤمناً أنها مولهة به . كانت سلمى تبتسم ، وتغنّي ، وتنشد الشعر ، وتهمس ، وتعاتب ، وتشجّع ، وتشعل في قلبي الرجلين المزيد من نيران الشوق .

قبل الليلة الخالدة بأسابيع قليلة ، كانت سلمى مع شوقي في مكان شاعري اختاره هو في حلوان . لأوّل مرّة ، ترى سلمى شوقي يشرب . كانت على الطاولة زجاجة من الشمبانيا تنام في سرير من الثلج ، وأمام الزجاجة قدحان . ملأ شوقي قدحه وملأ قدحها . استغرب عندما قالت له سلمى أنها لم تذُق في حياتها قطرة واحدة من الخمر ، ولا تنوي أن تذوق قطرة واحدة في الحاضر أو المستقبل . قال شوقي أن الجمال الذي يسكر الدنيا بأسرها . لا بدّ وأن يكون قد جرب النشوة . قال أنّه لا يصدق أن المرأة التي تحمل في عينيها رحيق

الفتنة لم تعرف طعم السُكْر . في نهاية اللقاء ، قال شوقي أن سيكتب قصيدة جديدة عن المرأة التي لا تنتشي وينتشي كل من رآها . ذكّرها شوقي بالحفلة التي سوف يقيمها في «كرمة ابن هاني» وقال لها أن هناك أكثر من مفاجأة في انتظارها .

طارت سلمى طيراناً بفستانها الأنيق والجواهر المتلألئة على عنقها ويديها ، إلى الكرمة . كانت الصالة الكبرى مليئة بعشرات الضيوف موزّعين على طاولات الصالة . أجلسها شوقي على يمينه وأجلس أم كلثوم على يساره ، وعلى بعد ثلاث مقاعد ، على الطاولة نفسها ، أجلس محمد عبد الوهاب . تشعر سلمى بانتفاضة في روحها كلما تذكرت تلك الليلة . كان شوقي لا يبعد عينيه عنها ، وكان عبد الوهاب يحاول أن يحصل على نظرة منها ، وكانت أم كلثوم تبحث ، بلا جدوى ، عن بادرة اهتمام من أمير الشعراء أو من مطرب الملوك والأمراء .

تتذكّر سلمى كيف توالت أحداث المساء : العشاء الفاخر ، وزجاجات الشمبانيا ، والحديث الممتع ، والخطاب الترحيبي القصير الذي ألقاه صحفي معروف نيابة عن أمير الشعراء (الذي لم يكن يجيد إلقاء شعر أو

نثر على الملأ) ، ثم الحلقة الموسيقية . استأذن محمد عبد الوهاب استعداداً لوصلته ، وبعد دقائق ظهر على المسرح الذي زُرع في قلب الصالة . اقترب أمير الشعراء من سلمى وهمس في أذنها : «ستجيء الآن ، المفاجأة الأولى» . وكانت المفاجأة أروع من رائعة . بدأ عبد الوهاب يغنّي الأبيات التي كتبها شوقي لسلمى . ولسلمى وحدها :

رُدّت الروح على المضني مَعكْ

أحسن الأيام يوم أرجَعكْ

كان صوت عبد الوهاب الرخيم يعانق شعر شوقي الرقيق ، وكانت سلمى تبحرُ في موجة من السعادة . تصوّرت نفسها وقد أصبحت ولاّدة ، وتصوّرت شوقي وقد أصبح ابن زيدون . طارت إلى القصر الأندلسي ، تقف على الشرفة ، ويقف تحت الشرفة ابن زيدون/ شوقي/ عبد الوهاب يشكو إليها مرارة الفراق :

مرّ من بعدك ما روّعني

أترى يا حلوُ بُعدي روّعكْ ؟

كم شكوت البين بالليل إلى

مطلع الفجر . . عسى أن يطلعكْ

وبعـــثتُ الشـــوق في ريح الصـــبـــا

فـــشكا الحـــرقـــة مّما اســـتـــودعكْ

عـادت سلمى إلى «كـرمـة ابن هانـي» . شـعـرت بكفّ شـوقي تضغط على يدها . في تلك اللحظة كان عبد الوهاب يغني :

مـــــوقـــــعي عـنـدك لا أعـلمـــــه

آه ! لـو تعـلـم عـنـدي مـــــوقـــــعكْ

نظر أمير الشعراء إلى عـبد الوهاب وحرّك رأسه حركة خفيفة ، فأعاد عبد الوهاب إنشاد البيت . تكرّرت الحركة ، وتكرّرت الإعادة .

نظرت سلمى إلى شوقي الذي كان يتأمّلها بلهفة ، ويهمس :

«مـوقـعي عندك لا أعلمـه» . طاف ببـال سلمى خـاطر طردته بسرعة : ربّما كان أمير الشعراء أذكى مما تصوّرت ، ربما كان يعابثها ، كما كانت تعابثه .

بعد انتهاء وصلة عبد الوهاب عاد إلى الطاولة حيث تلقّى كلمات الإعجاب من كل الموجودين والموجودات في الوقت الذي استأذنت فيه أم كلثوم استعداداً لوصلتها ، اقترب شوقي من سلمى ، وهمس في أذنها :

- هذه مفاجأتك الثانية .

قالت سلمى بفرح طفولي .

-ما هي ؟! ما هي ؟!

وردّ أمير الشعراء .

- قصيدة .

قالت سلمى متظاهرة بالدهشة :

- قصيدة ؟! من الذي نظمها ؟!

ابتسم شوقي ، وهمس :

- حدثني الشاعر الذي نظمها ، قال : «هذه قصيدة كتبتها في فتاة حسناء ، هيفاء ، لفّاء ، عذبة الصوت ، فتاة صغيرة مدلّلة أحبها ولا تحبني» .

قالت سلمى :

-حقاً ؟! قال الشاعر هذا ؟!

ابتسم أمير الشعراء ، مرة أخرى ، وواصل الهمس :

- حدثني الشاعر الذي نظم القصيدة ، قال : «وهذه الفتاة الحسناء أسكرت كل من نظر إليها ، وأسكرتني ، ولم تسكر هي . تدّعي أنها

لا تسكر ، إلا أنني لا أصدق . لا أصدق أن الفتاة التي تحمل في شفاهها «كرمة ابن هاني» لم تتذوق النبيذ . لا بد أن أسأل الكؤوس»

ابتسمت سلمى ، وهي تقول :

- يا باشا ! من هو هذا الشاعر . . .

إلاّ أن شوقي قاطعها :

- اسمعي ! اسمعي !

في هذه اللحظة بدأت أم كلثوم تغنّي :

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها

واستخبروا الراح هل مسّت ثناياها

شعرت سلمى بهزّة تجتاح كيانها ، وارتعشت مع اللحن ، ومع الصوت ، ومع الذكرى . توقّفت أم كلثوم حتّى هدأ التصفيق العاصف الذي قابل البيت الأول ، ثم واصلت الإنشاد :

باتت على الروض تسقيني بصافيةٍ

لا للسَلاف ولا للورد ريّاها

ما ضرّ لو جعلت كأسي مراشفها

ولو سقتني بصافٍ من حُميّاها ؟

استرجعت سلمى ذكريات اللقاء في حلوان . استعرضت الحديث الذي دار بينها وبين شوقي كلمة كلمة . ثم عادت تصغي بجوارحها كلّها إلى أمّ كلثوم :

حمامة الأيك . . من بالشجو طارحها

ومن وراء الدجى بالشـــوق ناداها ؟

ألقت إلى الليل جيداً نافراً . . . ورمت

إليــه أُذناً . . وحــارت فــيــه عــيناها

وعـادها الشـوق للأحـبـاب فـانبـعـثت

تبكي ، وتهـتف أحـيــاناً بشكواها

اضطرت أم كلثوم ، بناءً على رغبة جماعية ، أن تعيد الأبيات الثلاثة ، مرّة بعد مرّة . عاد خيال سلمى يسرح من جديد ، تصوّرت نفسها ، وقد تحولت إلى ليلى ، وتصورّت شوقي وقد أصبح مجنونها . مرة أخرى ، تسللت كف شوقي إلى كفّها لتعيدها إلى أم كلثوم التي كانت تتأوه من الأعماق وهي تغنّي :

يا جـــارة الأيك ! أيام الـهـــوى ذهبت

كـــالحلم . . . آها لأيام الـهـــوى آها !

ضغطت سلمى ، بدورها ، على كفّ شوقي . التفتت إلى عينيه فرأتهما مغرورقتين بالدموع . فوجئت سلمى بالدموع تسيل على وجنتيها . نظرت إلى المسرح فرأت أم كلثوم التي كانت مع كل مرّة تردّد فيها «آهاً »تحاول إخفاء دموعها . لم تشك سلمى ، وقتها ، ولا تشكّ الآن أن دموع أمير الشعراء كانت دموع حبّ ، وأن دموعها كانت دموع شفقة ، وأن دموع أم كلثوم كانت دموع غيرة .

*

تعبث أصابع العجوز بالراديو ، وتتوالى الإذاعات ، تغفو العجوز وتستيقظ . وتغفو وتستيقظ ، فجأة يشدّ انتباهها خبر ، يردّده الراديو بصوت متهدّج : « . . وقد قتل خلال الغارة الجويّة الليلية على غزّة عشرة أشخاص بينهم ثمانية أطفال ، وجُرح أكثر من مئة وخمسين شخصاً معظمهم من الأطفال والنساء . هذا وقد هنّأ رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون قوّاته المسلحة مُشيداً بإنجازها الذي اعتبره من أعظم الإنجازات . . .» . تتجهّم ملامح العجوز . تظل تتقلّب وتتقلّب وتغفو . وتستيقظ .

*

تقف سلمى في زيّ نقيب في قوة الدفاع الإسرائيلية تثرثر مع زملائها وزميلاتها في الوحدة . فجأة ، تدبّ الحركة ، ويصرخ العقيد ، قائد الوحدة ، وتنتصب سلمى ، كبقية الزملاء والزميلات ، مؤدّية التحية العسكرية . يمرّ رئيس الوزراء آرييل شارون على الصفّ يتفقده ، ويتحدّث قليلاً مع كل ضابط وضابطة . يقف أمام سلمى ، ويبتسم ، وتبادله سلمى الابتسامة . يسألها رئيس الوزراء وهو يتأمّل جسدها الممشوق بنظرات لا تخلو من شبق :

– هل ولدت في إسرائيل ؟

وتردّ سلمى بخجل :

– نعم ، سيّدي الجنرال !

يسألها شارون وعينه تتجوّل في جسدها :

– أنت سمراء البشرة . من أين جاء والداك ؟

تردّ سلمى على الفور :

– من اليمن .

يمنحها رئيس الوزراء ابتسامة أخرى ، قبل أن ينتقل ليتحدّث مع الضابط الذي يقف بقربها .

بعد انتهاء جولته التفقدية يتجه رئيس الوزراء إلى المنصّة ومعه رئيس الأركان . يقترب رئيس الأركـان من الميكروفون ، ويشكر رئيس الوزراء على الزيارة ، ويدعوه إلى أن يتحدّث إلى الوحدة . يبدأ شارون حديثه : «كلّما زرت وحدة في قوّة الدفاع شعرت أني أزور بيتاً يسكنه أفراد من أسرتي . أنا ، كما تعرفون جميعاً ، ابن قوة الدفاع ، ولدت فوق ذراعيها ، وقضيت عمري كله جنديّاً يتشرّف بالدفاع عن الوطن ، ولا أزال حتى هذه اللحظة ، وإلى آخر لحظة في حياتي ، جنديّاً يخدم في قوة الدفاع» . يعلو الهتاف والتصفيق ، ويستمرّ رئيس الوزراء : «إن قوة الدفاع ودولة إسرائيل توأمان لا ينفصلان . قُوّة الدفاع هي درع إسرائيل الأوّل والأخير ، وإسرائيل هي حبّ قوّة الدفاع الأول والأخير . وقوة الدفاع فوق ذلك هي المصهر الذي يحوّل اليهود القادمين من جميع أنحاء الدنيا إلى مواطنين في دولة إسرائيل . بدون هذا المصهر سوف يبقى اليهود غرباء في موطنهم التاريخي . . .» .

يسرح ذهن سلمى . تستعرض تاريخ القاتل الذي يتحدث ، الآن ، إلى القتلة . تمرّ أمام عينيها صور تاريخه الملطّخ بالدماء العربيّة ، منذ أن كان ضابطاً صغيراً يبيد السكان في القرى العربية التي يغير عليها إلى

أن أصبح رئيساً للوزراء استراتيجيته الوحيدة ترويع الأبرياء وقتل النساء والأطفال . تسيطر سلمى بصعوبة على مشاعرها الغاضبة ، وتجبر نفسها على العودة إلى الوحدة .

يحمرّ وجه شارون وهو يصيح : «إننا لا نمرّ بحالة طوارئ عادية . نحن في حالة حرب ، حرب بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى ، وليس أمامنا إلاّ أن ننتصر ، كما انتصرنا عندما هاجمتنا الدول العربية مجتمعة سنة ١٩٤٨» . يعلو التصفيق ، ويعلو صوت رئيس الوزراء : «إن الإرهابيين الذين يقتلون نساءنا وأطفالنا في المطاعم والأسواق والحافلات لا يفهمون سوى لغة واحدة هي لغة القوّة . إن المفاوضات مع الإرهابيين هي مكافأة لا يستحقّونها . والوسيلة الوحيدة للتعامل مع الإرهايين هي القضاء عليهم نهائياً» . تعلو موجة التصفيق من جديد ، ويواصل رئيس الوزراء صراخه : «فليقولوا عنّي ما يشاؤون ، وليقولوا عن دولة إسرائيل ما يشاؤون . نحن الذي نقف في خطر المواجهة ، وليس الذين ينتقدوننا من بعيد . لقد مضى الزمن الذي كان فيه اليهود يستسلمون لذابحيهم كالخراف ، ولن يعود . مقابل كل يهودي يُقتل ، سوف يقتل عشرة إرهابيين ، أو مئة ، أو ألف إذا أحوج

الأمر» .

يشرد ذهن سلمى من جديد ، تمرّ أمام عينيها صور المجزرة الرهيبة في صبرا وشاتيلا . مئات النساء . مئات الصغار . مئات الشيوخ والعجائز . هل كان بين هؤلاء إرهابي واحد ؟ هل كان بينهم مقاتل واحد ؟

يخرجها صراخ شارون من تأملاتها : «نحن نخوض معركة حياة أو موت ، معركة لا مجال فيها للحياد . ونحن نحارب لا دفاعاً عن أرواح مواطنينا فحسب ، بل باسم العالم المتحضّر الذي يواجه اليوم هجمة إرهابية تستهدف تقويض الحضارة المسيحية/ اليهودية . إما أن تنتصر الحضارة ، وإمّا أن ينتصر الإرهاب . إنّني أؤكد لكم ، أعطيكم كلمة شرف عسكرية ، أن الحضارة هي التي سوف تنتصر وأن إسرائيل سوف تكون الرائدة في معركة الحضارة ضد الهمجيّة» .

من جديد ، تفرّ أفكار سلمى من الوحدة ، تمرّ أمام عينيها صور الانتفاضة الأولى ، والانتفاضة الثانية . صور الأطفال الفلسطينيين والجنود الإسرائيليين يكسرون أيديهم . صور النساء الفلسطينيات الحوامل والجنود الإسرائيليين يطلقون عليهن النار . صور الآلاف من

الجرحى . صور الآلاف من المقعدين . صور الآلاف من الجثث المثقوبة بالرصاص .

يعـود ذهن سلمى إلى الوحـدة ورئيس الوزراء ينهي خطابه : «وأنتم ، فتيان إسرائيل وفتياتها ، أنتم جنود السلام الحقيقي الذي سيعم شعب إسرائيل ، وأرض إسرائيل كلّها . حين يتمّ القضاء على آخر إرهابي . شالوم» . يتدافع الجنود والضباط نحو شارون ويلتفّون حوله ، وتلتقط الصور التذكارية . عندما يخفّ الزحام تتقدم سلمى إلى رئيس الوزراء ، وتقول :

- سيدي الجنرال ! هل أطمع في توقيعك ؟

يردّ شارون مبتسماً :

- بكل سرور .

تقدّم سلمى دفتر الأوتوغراف الصغير إلى رئيس الوزراء الذي يوقّع ، ويملأ توقيعه صفحة كاملة تنظر إليه سلمى بإغراء ، وتقول :

- أشكرك ، سيدي الجنرال ! والآن هل تسمح لي بتقبيلك على وجنتك ؟

يضحك الجنرال ، ويقول :

- لم لا ؟ أنت في سن حفيدتي .

تدنو سلمى ، وتطوّق بيدها اليمنى عنق الجنرال ويدها اليسرى تضغط على الزرّ . قبل أن يتوقف قلب سلمى عن النبض ، ترى جسد السفّاح يتناثر قطعاً في الهواء ، ومعه قطع من جسدها .

*

يصافح الدكتور رشيد ، طبيب العائلة ، سليم ويقول :

- أحسن الله عزاءك ، كانت سيّدة عظيمة .

يتمتم سليم :

- أشكرك ، يا دكتور . لم تقصّر في العناية بها ، إلاّ أن الموت حق . لكلّ أجل كتاب .

- كنت أتطلّع إلى زيارتي الأسبوعية . كان حديثها ممتعاً جداً . كانت مثقّفة حقيقية ، قرأت الكثير من الكتب .

- كانت تقرأ وتكتب . ألّفت أربعة كتب .

يقول الدكتور رشيد باستغراب :

- حقّاً ؟ لم أر شيئاً منها . ولم تقل لي هي شيئاً عنها .

- نفدت نسخها منذ مدة طويلة . ولم تشأ أن تعيد طبعها . كانت

كلّها عن التاريخ ، كانت سلسلة من أربعة أجزاء اسمها «مواقف حاسمة في التاريخ» .

- آه : التاريخ والأدب ، التاريخ والشعر ، التاريخ والسياسة . كانت هذه الأشياء محور حديثها .

- إلاّ أن التاريخ كان حبّها الأول والأخير . كل الأشياء الأخرى جاءت عرضاً لإنها جاءت في التاريخ .

ويبتسم الطبيب ، ويقول :

- التاريخ ! كنت أستمتع بحديثها إلاّ أنها ، في الآونة الأخيرة ، كانت . . . كانت . . . كانت . . .

يتوقّف الطبيب محرجاً . ويقول سليم :

- أعرف ما تقصد . في الآونة الأخيرة ، بدأت تخلط بين التاريخ والواقع . كثيراً ما قالت لي أن التاريخ هو الحاضر الوحيد .

يبدو الطبيب متردّداً بعض الشيء ، ثم يغالب تردده ويقول :

- أستاذ سليم ! هناك شيء عجيب ، عجيب جداً ، يتعلّق بموتها ، رحمها الله .

ينظر إليه سليم بحيرة ويقول :

- شي عجيب؟! ماذا تقصد؟ ألم تمت بالسكتة القلبية؟ ألم يجئ هذا في تقرير المستشفى؟ ألم تكن تعاني من مرض قلب مزمن؟

- لا شكّ أنها ماتت بالسكتة القلبية، لا شكّ على الإطلاق.

- إذن ما هو الشيء العجيب؟

- الشيء العجيب، يا أستاذ سليم، أن الممرضة وجدت الفراش مليئاً ببقع من الدماء، وكان رداؤها بدوره مليئاً ببقع من الدماء، مع أنه لم يكن في جسمها جرح واحد.

يصمت سليم، ثم يبتسم ويقول:

- وما هو وجه العجب؟ أليس التاريخ هو الحاضر الوحيد.

من مؤلفات الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ورود على ضفائر سناء	(شعر)
عقد من الحجارة	(شعر)
سحيم	(شعر)
الإلمام بغزل الفقهاء الأعلام	(شعر)
قراءة في وجه لندن	(شعر)
التنمية الأسئلة الكبرى	(بحث)
الأسطورة	(مقالة)
الغزو الثقافي ومقالات أخرى	(مقالات)
صوت من الخليج	(مقالات)
حياة في الإدارة	(سيرة)
مع ناجي ومعها	(دراسة أدبية)
أبو شلاخ البرمائي	(رواية)

SALMA

NOVELLA

سلمى

يرفع الرئيس جمال عبد الناصر رأسه من الأوراق الّتي تكتظّ بها طاولته الصغيرة ، في بيته في منشيّة البكري . يشرق وجهه عندما يرى سلمى واقفة أمامه . يقول ضاحكاً :

ـ سلمى ! كيف دخلتِ ؟ لم يشعرني أحد . لم أحسّ بكِ .

تضحك ، بدورها ، وتقول :

ـ سيادة الرئيس ! هل نسيتَ أنّني مديرة المخابرات العامّة ؟!

...

ISBN 9953-441-08-1

